نحو التوحيدي ومصطلحاته في كتابه المقابسات

د٠ نرجس عبد الغفار بازهير (*)

المقدمة :

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليما كثيرا إلى يوم الدين، أما بعد :

فلقد خلق الله ﷻ الإنسان في أشرف هيئة، وأكرم مكانة، وأحسن تقويم، وجعل هذا الإنسان محتاجا إلى غيره، فكان من الطبيعي أن تقوم علاقة بين أفراد البشر نتيجة احتياج بعضهم إلى بعض، وهذه العلاقة لابد أن تقوم على أساس التخاطب والتفاهم، ليخبر غيره عما في نفسه، فاحتاج الإنسان إلى وسيلة ليتم بها التخاطب ومعرفة مراد الآخرين، ومن تمام فضله ﷻ أن خلق للإنسان لسانا يصدر حروفا من مجموعها تكونت الكلمات والألفاظ، فإن الألفاظ أخذت أهميتها من حيث هي قوالب للمعاني المكنونة في الضمائر؛ فإن دلالتها هي الغاية منها، والمقصود من وضعها، وهذه الوسيلة هي اللغة، وأعظم اللغات على البسيطة اللغة العربية؛ لأنها اللغة التي نزل بها القرآن، وهي تحتوي على فنون كثيرة منها:علم النحو والصرف، والبلاغة، وعلم اللغة، والأدب، وغيرها، واهتم بها العلماء؛ فأفردوها بالتأليف، والتصنيف، ومن هذه الفنون فن الأدب، والنثر، فعَبْرَ مسيرة الأدب العربي الطويلة منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا تقريبًا، مرَّ في قافلة الأدب

(*) أستاذ مساعد قسم العلوم والدراسات الأساسية كلية المجتمع – جامعه تبوك.

الكثير من الأدباء، والمبدعين، والكتّاب العباقرة الذين طوَّعوا اللغة، وجعلوها رهنَ أناملهم، يصوغونَ من حروفها مشاعر وأحاسيس تلهجُ بالحنين، والإثارة، والبهاء، وتُضفي على النصوص الأدبية روحًا أخرى تدفعها إلى الحياة في قلوب، وعقول القراء أجيالًا عديدة متعاقبة جيلا بعد جيل، وذلك في مختلف المجالات من شعر، ونثر، ورواية، وقصة، وغير ذلك، ومن أشهر الأدباء العرب الذي مرُّوا على تاريخ الأدب العربي في القرن الرابع الهجري التوحيدي الذي نال حظوة ومكانة عند كثيرٍ من العلماء قديما وحديثا بما كان يتمتع به من ثقافة متنوعة حتى وصفه ياقوت الحموي "بأنه "شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء"[1]. واستطاع بمقدرته الفكرية والفنية أن يحتل المكانة المرموقة في الأدب، ويعد من رواد النثر الأدبي مزج بين الفكر الفلسفي والبراعة في الكتابة الفنية، يسنده الخيال الواسع والقدرة اللغوية؛ لكثرة اطلاعه على الثقافة اليونانية المترجمة، وفكرة الدراما والصراع فيها مع احترامه للذوق العربي الذي لم يعتد على الصراعات الفنية؛ خاصة في وصف الأعمال البشرية،وبذلك قدم لنا نتاجا إبداعيا بالغ الروعة والجمال؛ لأنه مثقف وموهوب بكل ما تحمله هاتان الكلمتان من معان، ومعظم مؤلفات التوحيدي محاورات، ومسامرات، أو مقابسات، أو مناظرات[2]، وكتاب المقابسات محور دراستي يعتبر من أخطر كتبه؛ إذ حرر فيه رؤى ومعارف علماء عصره بسعة لم يدانه فيها كِتابٌ آخر، وشكلت مقابسات أولئك المناطِقة والفلاسفة سجلاً حافلاً لنصيب وافر من ثقافة بغداد؛ لذلك أحببت أن أدلو بدلوي في هذا الموضوع فاخترت أن أبحث هذه

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء (ج٥/١٥) ، دار الفكر، ط٣، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م.

(٢) انظر: بلاغة الخطاب وإبلاغية التأويل في محاورات أبي حيان التوحيدي (ص/١١) للأستاذ / عبدالقادر العربي جامعة المسيلة – الجزائر.

المسألة ووسمتها بـ "**نحو التوحيدي ومصطلحاته في كتابه المقابسات** " لأنه من الأهمية بمكان أن يُعنى الباحثون به.

وقد سرت في هذا البحث على النحو الآتي:

أولاً: أهمية الموضوع، وسبب اختياره.

ثانيا: خطة البحث.

أ-أهمية الموضوع.

تبرز أهمية الموضوع من خلال الأمور الآتية:

الأمر الأول: أن كتابات التوحيدي متميزة ومثيرة في نفس الوقت للتساؤل والجدل.

الأمر الثاني: كتابات التوحيدي تشبه الكتابات المعاصرة لوقته في ذلك العصر وبخاصة كتابات الجاحظ، إلا أنها كانت مختلفة عنها ومتفردة بخصوصياتها التوحيدية.

الأمر الثالث: اهتمام الدارسين به في العديد من الجوانب، وبخاصة من الناحية الفنية.

الأمر الرابع: الجانب الحجاجي؛ أو الإقناعي الذي تميزت به بعض كتاباته، وبخاصة في كتابه المقابسات حيث جمع بين روح الحوار والفائدة، ومزج فيه بين بلاغة الخطاب، والجانب التداولي البرغماتي، وبين الجمال والإبداع الفني والإقناع.

الأمر الخامس: أن بحث هذا الموضوع يعطي صورة واضحة أن أبا حيان التوحيدي بلغت الكتابة في عصره أعلى المراتب الفنية؛ لأن بها ينال الحظوة والرتب العالية في الدولة ؛ مما جعل الكتَّاب يجتهدون، ويبدعون كل بأسلوبه؛ ولما كان التوحيدي يتمتع بالذكاء؛ كان لزاما عليه إبداع طريقة في الكتابة تميزه عن غيره من الكتَّاب، وتفرده عما كان سائدًا في عصره.

الأمر السادس: دراسة هذا الموضوع بشكل مستقل يعد إضافة لبنة جديدة للمكتبة الأدبية خاصة، والمكتبة اللغوية عامة.

سبب اختيار الموضوع.

بالإضافة إلى ما ذكرته سابقا في أهمية الموضوع؛ يرجع سبب اختياري للكتابة فيه:

١-شخصية أبى حيان التوحيدي شخصية متعددة الجوانب من ذكاء وفطنة وثقافة، ولديه فضول ورغبة في الولوج إلى عالم الإبداع الأدبي في عصور الازدهار، ومحاولة التعرف على أسرار بيانه وتفرده في كتاباته.

٢-لغة التوحيدي لغة سهلة وبسيطة كأنه يعيش في عصرنا، فهي استطاعت أن تتجاوز حاجز الزمان، وانطلقت إلى عالم أوسع وأرحب، فحققت أهدافها فجمعت بين الجانب النفعي البرغماتي، والجانب الجمالي، وهذا ما دفعني إلى الطواف حول هذه الشخصية المتميزة عن غيرها من الشخصيات التي عاشت معها في ذلك العصر، وتأثرت بالظروف نفسها، فأقل ما يقال عنها أنها ترجمان عصرها، وكتاباتها تعد من أرقى الكتابات الفنية في ذلك العصر.

الدراسات السابقة:

لم أقف - بعد البحث - على دراسة مستوعبة بعنوان " **التوحيدي ومصطلحاته في كتابه المقابسات** " في بحث مستقل، ولكن هناك دراسات قد تناولت بعض أجزائه مثل"ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي" لسعيد حسن بحيري، "والبنية الحجاجية في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي" للطالبة شيخ أمال، رسالة ماجستير جامعة المسيلة الجزائر، وغيرها إلا أنها لم تعن بالكلام عن **التوحيدي ومصطلحاته في كتابه المقابسات.**

منهج البحث:

١- سوف أتبع المنهج الاستقرائي، والأسلوب الوصفي، والموضوعي.

٢- أجمع المادة العلمية بكل تتبع ودقة ما استطعت إليه سبيلا،وذلك من المصادر التي أثبتها في هوامش البحث.

٣- أعتمد على المصادر الأصيلة في كل مسألة بحسبها،غير مغْفِلة لجهود المحدثين.

خطة البحث:

يتكون هذا البحث من مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة، وفهارس، وهي على النحو الآتي:

المقدمة: شملت أهمية الموضوع، وسبب اختياره، ومنهج الكتابة، وخطته، وتساؤلاته.

* **التمهيد: جاء فيه:**

ترجمة موجزة لأبي حيان التوحيدي شملت الآتي:

أولاً: اسمه، ونسبه، ولقبه، وكنيته.

ثانياً: مولده، ونشأته.

ثالثاً: شيوخه.

رابعاً: منزلة التوحيدي بين العلماء.

خامسًا: التوحيدي أدبياً.

سادساً: مؤلفاته.

سابعاً: عناصر التجديد الفكري عند التوحيدي.

ثامنًا: مِحَنُه.

تاسعاً: وفاته.

* **الفصل الأول: نبذة مختصرة عن كتاب المقابسات.**
* **الفصل الثاني: في مصطلحات النجوم والزمان والحياة.**
* **الفصل الثالث: في مصطلحات الطبيعة، والبلاغة، والخطابة بين المتكلمين والفلاسفة.**
* **الفصل الرابع: في مصطلح الأرزاق، والنثر، والنظم، والفعل، والعمل، والحركة، والسكون.**

الخاتمة: وفيها أهم النتائج.

ثم الفهارس اللازمة للبحث.

وفي الختام: فإني أحمد الله عز وجل الذي منّ عليّ بإتمام هذا البحث، وقد بذلت جهدي فيه ليخرج بهذه الصورة المتواضعة؛ فما كان من صواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، وإن أريد إلا الإصلاح ما استطعت إليه، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، ويأبى الله أن تكون العصمة إلا لكتابه، وسنة رسولهﷺ، وعذري فيما فيه من خطأ أني بذلت الجهد فيه ولا أزعم فيه الكمال.

قال ابن القيم مقدماً لكتابه روضة المحبين: "والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه فما عسى أن يبلغ خاطره المكدود، وسعيه المجهود؛ مع بضاعته المزجاة وها هو قد نصب نفسه هدفاً لسهام الراشقين، وغرضاً لأسنة الطاعنين فلقارئه غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وهذه بضاعته تعرض عليك، ومولیته تهدى إليك، فإن صادفت كفؤاً كريماً لها لن تعدم إمساكاً بمعروف أو تسريحاً بإحسان، وإن صادفت غيره فالله تعالى المستعان وعليه التكلان، وقد رضى من مهرها بدعوة خالصة إن وافقت قبولاً واستحسانا، وبردٍّ جميل إن كان حظها احتقاراً واستهجاناً، والمنصف يهب خطأ المخطئ لإصابته، وسيئاته لحسناته، فهذه سنة الله في عباده جزاءً وثواباً، ومن ذا الذي يكون قوله كله سديداً، وعمله كله صواباً، وهل ذلك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ونطقه وحي يوحى" (١).

(١) انظر روضة المحبين ص ١٤ .

التمهيد:

ترجمة موجزة لأبي حيان التوحيدي

أولاً: اسمه، ونسبه، ولقبه، وكنيته.

هو: علي بن محمد بن العباس، أبو حيان، التوحيدي[١]، نسبة إلى نوع من التمر يسمى التوحيد.

ثانياً: مولده، ونشأته.

تعددت الآراء في أصله ونشأته ومولده،فقيل ولد سنة ٣١٠هـ ببغداد،ثم رحل إلى شيراز، وقيل شيرازي الأَصْل، وَقيل نيسابوري، وَقيل واسطي[٢]، وقيل ولد ٣٢٠هـ، أما السندوبي فحدد ميلاده ٣١٢هـ في مقدمة المقابسات، لأبوين فقيرين، وقيل إن أباه كان تاجرا يبيع نوعا من التمر يعرف باسم"التوحيد"؛ مما جعل المؤرخين يكنونه بالتوحيدي، وعاش طفولة معذبة في صغره فالتجأ إلى التحصيل العلمي، وكان شغفه كبيرا بالمعرفة، وامتهن مهنة الوراقة فوجد نفسه قريبا من الكتب[٣].

ثالثا: شيوخه.

أخذ أبو حيان علومه على يد علماء عصره؛ فأخذ النحو وعلم الكلام والمنطق والزهد من: أبي سعيد السيرافي، وعلي ابن عيسى الرماني، وأبي سليمان

---

(١) قال ابن حجر: يحتمل أن يكون إلى التوحيد الذي هو الدين؛ فإن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد. انظر : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة (١٩٠/٢)، للسيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم /المكتبة العصرية – لبنان / صيدا.

(٢) ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية (١٨٥/١)، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان ، دار النشر: عالم الكتب بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧ هـ.

(٣) أبوحيان التوحيدي ناقدا (ص /٧٥)، كلالي مسعود ، رسالة ماجستير ١٩٨٦م، جامعة وهران/ الجزائر.

المنطقي الذي كان يعد من أكبر علماء بغداد في عصر أبي حيان في المنطق، والحكمة، والفلسفة من المروروذي، ويحيي بن عدي، وغيرهم[١].

رابعاً: منزلة التوحيدي بين العلماء.

ازدهر النثر العربي بصورة متميزة في العصر العباسي إلى حد كبير؛ حيث أخذ يزاحم الشعر في إبراز أغراضه؛ مدحًا، وغزلاً، وهجاءً، ورثاءً، فصور النثر الحياة عامة؛ سواء أكانت سياسية، أم اجتماعية؛ أم ثقافية، أم عقلية، وكان هذا من خلال الرسائل بأنواعها الأدبية، والإخوانية، والرسمية، وآداب السمر والحكايات التي تمثل ضربًا من الاتجاه الشعبي في هذه الجوانب من النثر[٢] .

ويعد التوحيدي من أبرز كتاب النثر القديم، فهو التلميذ الذي تخرج من مدرسة الجاحظ، ومن الذين نالوا حظوة ومكانة عند كثيرٍ من الباحثين رغم الاختلاف البيّن في سنة ولادته، وفي وفاته، فهو الذي عاش على الأرجح بين العقد الثاني من القرن الهجري الرابع، والعقد الأول من القرن الذي يليه، فقد وصفه ياقوت الحموي بأنه شيخ الصوفية، وفيلسوف الأدب، وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء، لا نظير له، كثير التحصيل للعلوم في كل حفظه، واسع الدارية والرواية"[٣]، بل عُد واعتبر من فقهاء الشافعية، ومن المؤرخين الكبار اللامعين"[٤] ، ولم ينل التوحيدي اهتمامًا فقط لدى القدماء، بل

---

(١) أبوحيان التوحيدي ، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء (ص/٢٩)، وأبو حيان التوحيدي ناقدا (ص /٧١) كلالي مسعود .

(٢) ضيف: شوقي، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ج ١،٢، ١٩٨٤م، ص ٣٥٨.

(٣) الحموي: ياقوت، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٣م، ٢/ ٢٤٩.

(٤) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، مكتبة البابي الحلبي، ط١، ج٤، ١٩٦٤م، ٣/ ٣٤٥ .

أعجب بفكره وأسلوبه من المحدثين أمثال آدم متز، الذي اعتبره أعظم كتّاب النثر العربي على الإطلاق، وجعله زكي مبارك على رأس كتاب الآراء أو المذاهب في القرن الرابع الهجري[1].

خامسا : التوحيدي أدبياً.

من يقرأ أدب التوحيدي يتضح له بجلاء المنزلة التي وصل إليها هذا الأديب الموسوعي الذي لم يذق من كده وعلمه سوى الصدود والحرمان، على الرغم من شهرته التي طبقت آفاق الأدب والنثر العربي القديمين، بل يحس في كتاباته بقدرته على استبطان الذات واستقصاء جوانب النفس، وأن مناجاته ذات غور عميق وضعها في سجعات غير مستقرة وجادة، ولعل كتاب المقابسات للتوحيدي الذي يعتبر بين مؤلفات أبي حيان التوحيدي التالي في درجة شهرته بعد كتابه الأشهر الإمتاع والمؤانسة؛ فإنه في الواقع يمت إلى هذا الأخير بصلة ويشبهه إلى حد كبير، وإن كان يمكن في نهاية الأمر اعتباره مصوّرًا للمناخ الثقافي البغدادي في ذلك الحين أكثر من تصوير الإمتاع والمؤانسة له، عرض فيه لمسائل الفلسفة والدين والمنطق، واللغة، والنحو، والحكم، والأمثال، والعادات، والتقاليد الاجتماعية، إضافة إلى ما احتوى عليه من جوانب فلسفية، وثقافة فكرية جعلت منه عملاً موسوعيًّا على درجة كبيرة من الأهمية؛ حيث أشار التوحيدي في كتابه هذا إلى قضايا تدل على نزعته النقدية، فهو لم يكن مجرد مصور لعصره ذاك فحسب، بل شاهدًا عليه، ناقدًا ناقمًا، رافضًا، مرفوضًا معًا؛ حيث عاش التوحيدي حياة غريبة، حياة فقر، على رغم اتصاله بالوزراء، وكان دائم الشكوى، والنواح دائم الجوع، والقذارة، ولقد رُمي بالإلحاد والزندقة من قبل خصومه، وهو كان جلف الطباع متقلب الأهواء، وقيل إنه في آخر سنواته لجأ إلى زاوية في شيراز يتعبد

---

(١) السامرائي: محمد رجب، أبو حيان التوحيدي إنسانًا وأديبًا، ط١، الأردن ، الأوائل للنشر والخدمات الطباعية، ٢٠٠٢م، ص ٢٨٨ .

فيها وينعى حظه التعس، كما يروى أنه قبل وفاته جاءه من أشفق عليه يطلب منه أن يستغفر الله على ما اقترف لعله يغفر له، فقال غاضبًا: " أترونني أُقدم على جندي أو شرطي؟إنما أُقدم على رب غفور"(١).

سادسا: مؤلفاته.

ذكر كثير من العلماء أن التوحيدي كان غزير الإنتاج، وتنوعت كتبه في الأدب، والنحو، وعلم الكلام، والفقه، والتصوف، والفلسفة، واللغة ؛ ولقد وصفه ياقوت الحموي الرومي بأنه أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء على اعتبار أن هذا الأديب الموسوعي جمع بين مختلف المعارف، واستوعب ثقافات عصره بكل شتاتها وفروعها؛ حيث عرف عنه تضلعه في الأدب، والشعر، والنقد، والفقه، والفلسفة، وعلم الكلام، والمنطق والتصوف، وغيرها، وإن لم يؤلف فيها جميعًا، إلا أن لائحة بأسماء العلماء والفلاسفة والأدباء الذين أخذ عنهم وتتلمذ على أيديهم تدل أكبر دلالة على مبلغ ما ناله هذا الأديب الألمعي من التحصيل، فضلاً عما حصله من مهنته كناسخ للكتب وكوراق، من المعلومات والمعارف ، وقد أورد له ياقوت الحموي في معجمه أسماء بعض المؤلفات والكتب بلغت ثمانية عشر كتابا منها : "البصائر والذخائر"، و "مثالب الوزيرين"، و"الصداقة والصديق"، و"الإشارات الإلهية"، إضافة إلى "الإمتاع والمؤانسة"، و"المقابسات"، الذي هو بين أيدينا، وغيرها ، وهذه الكتب تعتبر من تأليفه بالتأكيد؛ إذ ثمة أخرى تثار من حول انتسابها إليه أسئلة وشكوك(٢)، وقد ذكر أنه قد أحرق كتبه في أواخر أيام حياته(٣).

---

(١) السامرائي: محمد رجب، أبو حيان التوحيدي إنسانًا وأديبًا، مرجع سابق، (ص ٢٨٧).

(٢) السامرائي: أبو حيان التوحيدي إنسانًا وأديبًا، مرجع سابق، ٢١٣).

(٣) أبو حيان التوحيدي /١٢ – ١٣ إبراهيم الكيلاني، ياقوت الحموي / تحقيق إحسان عباس.

وما يهمنا من مؤلفاته هو أن نقف عند ملمح من ملامح هذا التكامل المعرفي العلمي في شخصية أبي حيان وفكره، وفي كتاب واحد من كتبه "المقابسات" [١]، خصصه للفلسفة وتحديدًا لحوارات فلاسفة بغداد في القرن الرابع الهجري،وذلك لأهمية إنتاجه الأدبي كله وغزارته سنركز على ما جاء فيه من مصطلحات علمية فيما سيأتي.

سابعاً : عناصر التجديد الفكري عند التوحيدي

المطالع لمؤلفات التوحيدي يجد معظمها محاورات، أو مسامرات، أو مقابسات، أو مناظرات، وهي نتاج وعصارة ثقافته وذكائه الخارق، وأيضا نقل عن كتب ثقافية وقضايا عصره فكان يبلورها شفاهة، وينقلها إلى تدوينها في كتاباته التي تحمل صفات الإبداع، مع مراعاة القوانين الرسمية التي تضعها الدولة العباسية فلا يكون مختلفا عن توجه الدولة آنذاك، وكان يحاول بشتى الطرق إبعاد الفوضى في نظم الكتابة، ففي مؤلفه "الإمتاع والمؤانسة" يعرف ما له وما عليه، وهذا نبع من رأيه الشخصي في وصفه للمبدع فكان حقا أنموذجا لذلك لاعتزازه بذاته وإمكاناته، والقضية التي يريد أن يجعل لها دورًا في حياته يقول: " إذا جرى الأمر على غير ما كان في حسابي وتلبس بظني، فإني أهدي ذلك كله بغثاثته، وسمانته، وحلاوته، ومرارته، ورقته، وخثارته في هذا المكان، ثم أنت أبصرُ بعد ذلك في كتمانه، وإفشائه، وحفظه، وإضاعته، وستره، وإشاعته، والله ما أرى هذا أمرا صعبا إذ وصل إلى مرادك، ولا كلفةً شاقةً إذا أكسبني مرضاتك، وإن كان ذلك يمر بأشياء كثيرةٍ ومختلفةٍ، متعصية غريبةٍ، منها ما يشيط به الدم المحقون، وينزع من أجله الروح العزيز، ويستصغر معه الصلب، ولا يقنع فيه بالعذاب

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، مرجع سابق، ٢/ ٣٨٤.

الأدنى دون العذاب الأكبر "[1] ، فنجد من خلال هذا النص الفرق الواضح بين المفردات والمترادفات، يقول أمين العالم: "إن أسئلة أبي حيان في هوامله على تنوعها وعمقها هي أسئلة ثقافية معرفية فلسفية مفارقة[2]"، فنجد أن التوحيدي استطاع أن يرتفع من الواقع إلى ملامسة الإشكال المعرفي الفلسفي الذي كان صدى للواقع الموضوعي السائد، إنه يعرض لهذا الزخم الفكري والجدلي ليثير الأفكار، ويوجهها وجهات جديدة تنويرية؛ فتصل معه في نهاية التساؤل والإجابة إلى رؤية جديدة بتعقل، وروية، وإبداع؛ وعليه نلمس اختلاف الفكر التوحيدي عن غيره، وذلك بأفضليته المبنية على المقاربة الفلسفية في طرح المشاكل المشتركة بين الأفكار المتعارفة، والمتتبع لمنهج ابن رشد يجد أنه ينتصر للعقل لا للوجدان مما يدل على أن ابن رشد استقى من فلسفته[3].

ثامنا : مِحَنُه .

لعل أكبر محنة قابلت التوحيدي هي محنة حرقه لكتبه، فبعد انتقاله من حياة أوساط الأرستقراطيين إلى التصوف مما يثبت ويدلل لنا على أنه الأديب الذي وصل إلى مرحلة من اليأس والشؤم حتى أقدم على حرق كتبه معلنًا عن تمرده على الحياة التي يعيشها؛ حيث انتهى التوحيدي بعد تلك الرحلة العلمية الشاقة إلى الموت فقيرًا بائسًا في إحدى زوايا مدينة شيراز اعتقادًا منه بقلة جدواها.

---

(١) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة (ج١/١٢)، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

(٢) محمود أمين العالم ، تساؤلات حول الهوامل والشوامل ، مجلة فصول المصرية ، مجلد ١٤، العدد٣ ، ١٩٩٦. (ص/٢٥).

(٣) عبدالقادر العربي ، بلاغة الخطاب وإبلاغية التأويل في محاورات أبي حيان التوحيدي (ص/١٤) جامعة المسيلة –الجزائر .

تاسعاً : وفاته .

تباينت آراء وأقوال المؤرخين الذين ترجموا للتوحيدي في تحديد سنة وفاته، فمنهم من جعلها ٣٦٠هـ، وهذا غير صحيح؛ لأن الثابت أنه كتب في سنة ٤٠٠هـ رسالة إلى القاضي أبي سهيل يبرر فيها عمله في إحراق مؤلفاته[١]، وأيضا ثبت أنه توفي عن عمر ١٠٤ عام مما يدل على أنه توفي في سنة ٤١٤هـ[٢].

* *

(١) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء (٥ / ٣٨٦ – ٣٩٢) ، وأبو حيان التوحيدي ناقدا (ص /٥٤) كلالي مسعود.

(٢) أبو حيان التوحيدي ، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء (ص/٢٩) ، وأبوحيان التوحيدي ناقدا (ص /٧١) كلالي مسعود .

الفصل الأول

نبذة مختصرة عن كتاب المقابسات

لقد امتاز التوحيدي على أقرانه من الأدباء والكتاب في القرن الرابع بالتفرد في اختياره للأسلوب الذي يكتب به، والذي استطاع من خلاله أن يعبر عن المسائل الفكرية التي شاعت في عصره؛ فاختار منهجا خاصا به، يجمع فيه بين الأدب، والفلسفة، والدين، والبلاغة [١].

ويعتبر كتاب المقابسات من أهم الكتب التي ألفها التوحيدي؛ لأنه نقل صورة حقيقية عما وصلت إليه الحضارة من رقي أدبي وفلسفي، وانحطاط سياسي واجتماعي، فقد تمكن بأسلوبه المتفرد أن يجسد تلك الصورة بأدق تفاصيلها. قال زكي مبارك عن كتاب المقابسات : "كتاب عظيم لا ينفع المبتدئين إلا قليلا، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلسفة الإسلامية "[٢]، فالتوحيدي قد كتب هذا الكتاب وعبر فيه عن المسائل الفلسفية في عصره، بعد أن وقف على معضلاتها وفهمها ونقلها إلينا بأسلوب بسيط بليغ، حيث صاغ مسائلها في قالب أدبي، أصبحت من خلاله في متناول أفهام الناس، وهذا ما جعلهم ينصبون على قراءتها وفهمها، وأصبحت الفلسفة وكأنها باب من أبواب الأدب، وفن من فنونه، وقد أصبغ المسائل الفلسفية صبغة الأدب وطبعها بطابعه الخالص، فكان كتابا هو أقرب إلى الأدب منه إلى الفلسفة، وكان يهدف من ورائه إلى شيء يقصده هو، وهو ما سنعرفه من خلال دراستنا لهذا الكتاب، فكتاب المقابسات عبارة عن

---

(١) أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات، (ص/١٣٣) الأمير الأعسم، المقابسات (ص /٨)، أبو حيان التوحيدي، والبنية الحجاجية في كتاب المقابسات، لأبي حيان التوحيدي (ص /٢٥) .

(٢) زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، (ص ١٣٨)، والبنية الحجاجية في كتاب المقابسات، لأبي حيان التوحيدي (ص /٢٥).

محاورات سمعها أبو حيان خلال جلساته مع العلماء والمفكرين، فاقتبس من كل عالم قبسا وصاغها بأسلوبه الأدبي، مما أكسبها رونقا وجمالا جعل منها مزيجا فريدا تميز به عن غيره، على أن الكتاب ليس كله محاورات، فبعضه كان قطعا من كتب مترجمة، أو بعض الدروس، أو إجابات عن تساؤلات يطرحها المؤلف أو غيره من المتحاورين(١)، والمتأمل في هذا الكتاب يلحظ ويؤكد أنه يندرج ضمن ما اصطلح عليه بالأدب الفلسفي.

١- تجليات أدبية في كتاب المقابسات:

يتفق جل الباحثين وأغلب الدارسين من المهتمين بفكر التوحيدي على الطابع الأدبي الذي صيغت به هذه المقابسات، وأن تناوله لهذه النقطة قد اتخذ مناحي شتى، إذ إننا نجد منهم من يتخذها مسلكا إما لاتهام التوحيدي بتدخله في صياغة هذه المقابسات، وربما اصطناعها ونسبتها إلى فلاسفة عصره، وإما لاعتبار الكتاب خاليا من أية فائدة على غرار المستشرق ماكس مايرهوف الذي يرى أن تدخل أبي حيان التوحيدي في نصوص الكتاب بالتعديل والتنقيح جعل هذه المقابسات فاقدة لأية قيمة،في حين اعتبر آخرون هذا التصرف عملا مسهمًا في تقريب الفلسفة من عامة الناس.

٢- الشاهد الشعري:

يمثل الاستشهاد بالشعر ملمحا آخر من ملامح هذا التكامل بين الأدب والفلسفة في الكتاب، وهي ظاهرة وإن كنا نجد لها أمثلة في كتب الفلسفة الأولى في الحضارة العربية الإسلامية، إلا أننا نؤكد أنها في هذا الكتاب تتخذ منحى

(١) أبو حيان التوحيدي، المقابسات تحقيق محمد توفيق حسين (ص /١٣) ، خضر موسى محمد حمود، الجواحظ في الأدب العربي (حياتهم بيئتهم، نتاجهم) (ص/٢٥١) ، وشوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات (ص/٤٣٢) والبنية الحجاجية في كتاب المقابسات، لأبي حيان التوحيدي (ص /٢٥).

واضحا تتوزع الأبيات الشعرية الواردة أو المستشهد بها في كتاب "المقابسات" بين إبداعات الشعراء العرب.

٣-نقد الشعر :

إن تعامل متفلسفة المقابسات مع الشعر يتجاوز أحيانا مستوى الاستشهاد إلى ممارسة عملية النقد، ويمكن ذكر المثال الوارد في الصفحتين ٢٦٦،٢٦٧ ؛ حيث يقول التوحيدي بأن أستاذه استحسن للبديهي أبياتا هي قوله:

لا تحسدن على تظاهر نعمة

شخصا تبيت له المنون بمرصد

بل إن أبا سليمان السجستاني علق عليها بقوله :"ما أفلح البديهي قط إلا في هذه الأبيات فما كان من تلميذه أبي حيان إلا أن أردف قائلا : وصدق كان غسيل الشعر، سريع القول، قليل الحلاوة، ومن باب الاستحسان اقتراح السجستاني على تلميذه أن ينشد له شعرا لبعض الإلهيين ليعلق عليه بقوله: ما أحسن الأدب والحكمة إذا كان هذا من ثمارها، ومما يوضح لدينا أيضا هذا المنحى ويؤكده هو العدد الذي أورده التوحيدي من الأبيات الشعرية في كتابه، والذي بلغ ثلاثة وثلاثين بيتا، فضلا عن أن اختيارها خضع للمقياس الأخلاقي حيث إن الغالب عليها، سواء المستشهد به أو ما تم استحسانه وما أبدعه السجستاني يغلب عليه طابع الحكمة، وتحيط به مسحة من التصوف[١].

٤-الصياغة الأدبية:

قبل الحديث عن صياغة الكتاب لابد من الإشارة إلى أن هذه الصياغة ولدت نقاشا حادا، وخلافات متشعبة، فقد جعلت الكثير من الدارسين يشكّون في جدوى

(١) أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق محمد توفيق حسين (ص /١٣) ، أبو حيان التوحيدي: المقابسات، تحقيق حسن السندوبي الطبعة الثانية ١٩٩٢، الناشر دار الكتاب الإسلامي القاهرة (ص/٢٦٧-٢٦٨).

هذه المقابسات، ويقللون من قيمتها، ومن مكانة الكتاب في تاريخ الفلسفة، في حين أننا نجد باحثين آخرين يحاولون الدفاع عنه أو يحاولون أن يلتمسوا له العذر.

يقول جي دي بور عن فلسفة يحيى بن عدي والتوحيدي : "كذلك نجد نزعة الفارابي المنطقية تستحيل عند تلاميذه إلى فلسفة لفظية، ونرى الجدل يدور حول تحديد المعاني، والتدقيق في التمييز بينها... وكانت جماعة السجستاني تتلاعب بالألفاظ والمعاني، بينما كان إخوان الصفا يتلاعبون بالأعداد والحروف، وكانت الصوفية منتهى لكلا الفريقين"(١). ويلتقط ماكس مايرهوف هذا الحكم ليقول: "وكما لاحظنا من قبل ليس لهذه المحاورات التي كتب المؤلف بعضها من عنده – قيمة كبيرة، فهي موضوعة في قالب أدبي، والْمُلح تسودها إلى جانب التلاعب بالألفاظ ،ولكن المهم هو الوسط الذي يدخلنا أبو حيان فيه"(٢). فهذه الأحكام دفعت باحثين آخرين للدفاع عن الكتاب، فالسندوبي وهو من أوائل من اهتموا بهذا الكتاب وبنشره في المجال العربي، يعلل الارتباط بين الفلسفة والبلاغة في المقابسات(٣)، وغيرهم من المدافعين كإحسان عباس(٤)، ومحقق الكتاب محمد توفيق حسين. من كل ما سبق نجد أن أسلوب التوحيدي في المقابسات لا يختلف عن أسلوبه في مؤلفاته الأخرى، حيث نلاحظ:

١- كثرة الألفاظ وغلبة أسلوب الإطناب على الإيجاز.

---

(١) أبو حيان التوحيدي، المقابسات، تحقيق محمد توفيق حسين (ص /١٣) ، وأبو حيان التوحيدي: المقابسات تحقيق حسن السندوبي، (ص/٢٦٧-٢٦٨)

(٢) من الإسكندرية إلى بغداد للدكتور ماكس مايرهوف ضمن كتاب " التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، عبد الرحمن بدوي، الطبعة الرابعة، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت لبنان (ص٨٩).

(٣) مقدمة محقق المقابسات ، محمد توفيق حسين (ص /١٧).

(٤) أبو حيان التوحيدي، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٤ (ص١٣٤).

٢-المترادفات بحيث إن الفكرة الواحدة يعبر عنها بأكثر من عبارة واحدة.

٣-غلبة الطباق والمطابقة.

٤- التوازن الصوتي بكثرة استعمال المحسنات اللفظية.

ثانيا : مميزات الكتاب :

١- مقدمة المؤلف وخاتمة الكتاب وتمثل قمة التأنق في الصياغة الأسلوبية وتوظيف الآليات البلاغية.

٢- حوارات المتفلسفة وهي في درجة وسطى من حيث العناية.

٣- إملاءات من كتب الفلسفة، وضمن هذا النوع تطرح الصياغة الفلسفية والتعابير الجافة الموجزة، وتلاحظ قلة العناية بالعبارة.

٤- مناقشة بعض القضايا بشكل مستفيض في الكتاب، موضوع البلاغة، ووظيفتها وخصائصها، كما تمت الإشارة إلى مناقشة قضية المفاضلة بين المنطق والنحو، ومن القضايا المهمة التي ناقشها فلاسفة المقابسات قضية النظم والنثر[١].

* *

(١) أبو حيان التوحيدي، المقابسات تحقيق محمد توفيق حسين (ص /٥٩) ،(ص/١٠٨)

الفصل الثاني

في مصطلحات النجوم والزمان والحياة

أهمية علم النجوم:

يقول التوحيدي: إن علم النجوم ليس كباقي العلوم، فهو يرى أن صاحبه وإن استقصى، وبلغ الحد الأقصى في معرفة الكواكب وتحصيل مسيرها، واقترانها ورجوعها، ومقابلتها وتربيعها، وتثليثها وتسديسها، وضروب مزاجها في مواضعها من بروجها وأشكالها، ومقاطعها ومطالعها، ومشارقها ومغاربها، ومذاهبها، حتى إذا حكم أصاب، وإذا أصاب حقق، وإذا حقق جزم، وإذا جزم حتم – فإنه لا يستطيع ألبتة قلب عين شيء، ولا صرف أمر إلى أمر، ولا تنفير حال قد دنت، ولا نفي ملمة قد كتبت، ولا دفع سعادة قد أجمعت وأظلت .

فالتوحيدي يرى أن العالم بالنجوم لا يقدر على أن يجعل الإقامة سفرًا، ولا الهزيمة ظفرًا، ولا العقد حلاًّ، ولا الإبرام نقضًا، ولا اليأس رجاءً، ولا الإخفاق دركًا، ولا العدو صديقًا، ولا الولي عدوًّا، ولا البعيد قريبًا، ولا القريب بعيدًا[1].

ويرى أن العالم بالنجوم والحاذق فيه، المتناهي في حقائقه، بعد بذل التعب والنصب، وبعد الكد والدأب، وبعد الكلفة الشديدة، والمؤنة الغليظة فهو مستسلم للمقدار، ومستجد لما يأتي به الليل والنهار، وعادت حاله مع علمه الكبير، وبصيرته الناقدة، إلى حال الجاهل بهذا العلم الذي انقياده كانقياده، واعتباره كاعتباره، ولعل توكل الجاهل به أحسن من توكل العالم، ورجاءه في الخير المتوقع، والشر المتوقى، أقوى وأرسخ من رجاء هذا المدل بزيجه وحسابه، وتقويمه واصطرلابه!

---

(١) المقابسة الثانية ، ص ٨ .

ويضرب أبو حيان مثالاً عن أهمية علم النجوم قائلاً: كان أنو شروان من المغفلين الأفاضل، لا يريغ بالنجوم، فعندما سئل أجاب: صوابه شبيه بالحدس، وخطؤه شديد على النفس.

وينتهي بعد ذلك قائلاً: وإذا كان العالم بالنجوم مستسلمًا للمقدار، كان علمه عاريًا من الثمرة، خاليًا من الفائدة، حائلاً عن النتيجة، لا عائدة، ولا مرجوع؛ وأن علم بهذه الصفات لحري بأن لا يشغل الزمان به، ولا يوهب العمر له، ولا يعار الهم والكدر، ولا يعاد عليه بوجه ولا سبب؛ وذلك لأن المنجم قد يغفل اعتبار حركات كثيرة من أجرام مختلفة؛ لعجزه عن نظمها وتقويمها، ومزجها وتسييرها،وتفسير أحوالها، وتحصيل خواصها، مع بعد حركة بعضها، وقرب حركة بعضها، وبطئها وسرعتها، والتفاف صورها، والتباس مقاطعها، وتداخل أشكالها؛ وذلك لأن الله ﷻ يتميز بذلك القدر المغفل، والقليل الذي لا يؤبه له، والكثير الذي لا يحاول البحث عنه، أمرًا لم يكن في حساب الخلق، ولا فيما علموا فيه القياس واختلط بالتقدير والتوهم ،وذلك أن للعالم بما سيكون ويحدث ويستقبل،علم خلق للنفس، واقع عند العقل، فلا أحد إلا وهو يتمنى أن يعلم الغيب ويطلع عليه، ويدرك ما سوف يكون في غد، ويجد سبيلاً إليه، ولو دل السبيل إلى هذا الفن لرأيت الناس يهرعون إليه، ولا يؤثرون سبيلاً آخر عليه، لحلاوة هذا العلم عند الروح، ولصوقه بالنفس، وغرام كل أحد به، وفتنة كل إنسان فيه؛ فبنعمة من الله لم يفتح هذا الباب، ولا انكشف من دونه الغطاء، حتى يرتع كل أحد روضه، ويلزم حده، ويرغب فيما هو أجدى عليه وأنفع له، أما عاجلاً فقد علمت أن علم ما يكون أحب إلى جميع الناس من كل فقه وكلام وأدب وهندسة وشعر وحساب وطب؛ لأن هذه رتبة إلهية، وهي الفاصلة الكبرى فطوى الله عن الخلق حقائق

الغيب، ونشر لهم نبذًا منه، وشيئًا يسيرًا يتعللون به، ليكون هذا العلم محروصًا عليه كسائر العلوم، ولا يكون مانعًا عن غيره[١].

مصطلحات الزمان والمكان والإنسان

يعرض التوحيدي لمصطلحات الزمان والمكان والإنسان قائلاً: كيف يكون هذا الزمان أشرف من هذا الزمان، وهذا المكان أفضل من هذا المكان، وهذا الإنسان أشرف من هذا الإنسان؟

فيقول يأتي هذا بإفاضة **الزمان** إلى سعادة شائعة، وعز غامر، وبركة فائضة، وخصب عام وشريعة مقبولة، وخيرات مفعولة، ومكارم مأثورة من جهة شكل الفلك بما تقتضيه بعض أدواره.

كذلك **المكان** إذا قابله أثر من هذه الأجرام الشريفة، والأعمال المنيفة.

وأما **الزمان** الذي هو رسم الفلك بحركته الخاصة فليس فيه جزء أشرف من جزء.

وكذلك **المكان**؛ لأنه رديف الزمان ولا سبيل في مثل هذه المسائل إلى معرفة الحقائق إلا بالأمانة التي هي شاملة للعالم، غالبة عليه من محيطه إلى مركزه .

وأما **الإنسان** فلا شرف له أيضًا على إنسان آخر؛ من جهة حده الذي هو الحياة، والنطق والموت؛ لأن الحد في كل أحد واحد، فإذاً لا شرف من هذا الوجه، فإن اعتبر بعد هذا، فعل هذا وفعل ذاك، من جهة الاختيار والإيثار والاكتساب.

يطرح التوحيدي لمصطلحي ظرف الزمان وظرف المكان فيقول: لم صار الظرف المخصوص بالزمان أكثر من الظرف المخصوص بالمكان ؟ وليس هذا من النحو، وإنما النحو في هذا أن تعرف أن الظرف ظرفان، ظرف زمان، وظرف

(١) المقابسة الثانية، ص ٩ – ١٣ .

مكان، وتحصي أسماء هذا وتميزها من أسماء هذا، وتقف على المواضع المخصوصة بهما والإعراب اللازم لهم أو بهما.

والظرف الزماني ألطف من ظرف المكان، والمكاني أكثف من ظرف الزمان، وكأن **المكان** من قبيل الحس، و**الزمان** من قبيل النفس، وكأن الزمان من حد المحيط، والمكان من حد المركز، فوفر لهذا أن يكون تصرف الألطف أكثر من تصرف الأكثف، وبحسب تصرفه تكون أسماء أحواله في تصرفه أكثر، والزمان منسوب إلى حركات الفلك، فجوهره شريف والمكان من جوهر المحيط، فجوهره محطوط والفلك أقرب من الأمور العالية، فكذلك مرسومه الذي هو الزمان(١).

وقال: ومما يشهد أن **الزمان** ألطف، أنك تقول: زمان حاضر، وزمان ماضٍ، وزمان مستقبل هذا بالنظر الأول، وقد أحس به كل الناس، وهو يزيد بالمنطق على هذه القسمة زيادة بينة، ومن أجل تصرف الزمان في الوجوه الكثيرة، استخرج يحيى بن عدي المنطقي من قول القائل: القائم غير القاعد، وجوهًا تزيد على عشرين ألف وجه بآلاف، ورسالته في ذلك حاضرة.

ثم قال: ومما يزيد لطافة الزمان وضوحًا أن الزمان الواحد يجر إلى أكثر من واحد، إلى ما لا آخر لهما، والمكان الواحد متى شغل بالواحد عجز عن الثاني.

ثم قال: وأي نظر أشرف من نظر الفيلسوف الذي يرتقي من السفل فيجول في الوسائط، ويبلغ إلى العلو، وربما انحدر من العلو فخرق بمدة الحجب كلها، مبينًا عنها وعن جملتها وتفصيلها، بمعرفة موزونة من العقل، وروية مؤيدة بالبصيرة، وحقائق بالعدل موزونة، وتصفح بالغ إلى الحد الأقصى، بلا ظرف ولا ترقب ولا شك ولا مرية،بل علم ثابت ومعرفة راسخة،وبيان جلي، وشاهد قائم، وبرهان موجود، وللمشغوف بالحكمة في هذه المواضع مراد ومسرح، ومرمي،

(١) المقابسة الخامسة ، ص ١٦.

ومفتح؛ وذلك لأن الإلهية عالية، وعلائقها متشاكلة متناسبة، ومواهبها متقاربة متواصلة، ومتى كشف الغطاء بالنظر والفحص بأن منها ما يبهر كشعاع الشمس[١].

مصطلحات الحياة والموت

يعرض التوحيدي لمصطلح الموت والحياة قائلاً: الأسباب التي هي مادة الحياة، هي وزن الأسباب التي هي جالبة للموت .

وعندما يعرض السؤال الآتي : لم كان الموت على هذا أولى بالإنسان من الحياة؟ **فيقول:** لأن **الموت** طبيعي، وكل طبيعي لا محيص عنه وإنما أطلق الكلام الأول ؛ لأنك ترى من نجا من الموت بشيء، به يخلص غيره إلى الموت، فلو أستطيع حصر هذه الأبواب ما به يموت من يموت في عدد ما به يحيى من يحيا ويقول: وها هنا موت طبيعي معرف به، وفي مقابلته حياة طبيعية؛ وهكذا أيضًا هاهنا موت عرضي، وفي مواجهته حياة عرضية. فالموت الطبيعي قد قامت منه الشهادة من الكافة. **فأما الحياة الطبيعية** فحياة العقل بالمعقول، والموت بالعرض الجهل الشائع في الإنسان، **وأما الحياة العرضية** فحس الإنسان وحركته بسلامة بدنه، وسكون أخلاطه، وقوة طبيعته، وتصرف سائر ما هو مركب من جهته، ويقول: ومن فتح الله بصيرة عقله ولحظ هذه الحقائق، ترقى في درجات المعارف، وسلاليم الفضائل، وانتهى إلى أفق الروح والراحة، ونجا من هذه المعادن التي هي معادن العطب والتلف، ومساكن الآفات والهلاك[٢].

---

(١) المقابسة الخامسة، ص ١٦، والثالثة والعشرون، ص ٣٢- ٣٥.

(٢) المقابسة الثامنة، ص ١٨.

الفصل الثالث

في مصطلحات الطبيعة والموجود بالعقل والفعل ومصطلح البلاغة والخطابة بين المتكلمين والفلاسفة

مصطلح الطبيعة

يعرض التوحيدي لمصطلح الطبيعة وكيف هي عند أهل النحو واللغة؟ أهي فعلية بمعنى فاعلة، أو بمعنى مفعولة؟

فيعرض عن هذا المصطلح فيقول: هذا من قبيل الأسماء المحضة، لا من قبيل الأسماء المشوبة، فلا يقال لذلك: إنه فعيل بمعنى فاعل، كقدير بمعنى قادر، ولا يقال: إنه فعيل بمعنى مفعول، كذبيح بمعنى مذبوح، ولكن يقال: هو فعل في أصله كجبير وأثير، ومع هذا فمعنى الفعل به أقرب من معنى الفعل منه، ولفعيل أسرار ووجوه، وقد كان بعض الناس زل فيه عند بعض الأمراء، وإذا لم يكن بد من اعتباره على طريقة هذا السائل، فلأن يكون بمعنى مفعول أولى، وذلك أنا نقول: طباعه كذا وكذا،وطبيعته، أي ما طبع عليه، وبمعنى فعل، والمفعول فيه أبين، وأخواته يدللن على ذلك، أعني **الضريبة، والسليقة، والسجية، والغريزة، والنحيزة**[1] .

ثم يستمر في العرض قائلاً: وإذا لخص المعنى الذي خصت الطبيعة به من قبولها من النفس، وانقيادها لتصريفها وانفعالها بتفعيلها، فإن الطبيعة كالهدف لما عنى النفس، وكالشيء الشاحي فاه المنتظر لما يلقى إليه ويرسم له، لا يتعدى حكمه، ولا يعصي أمره، ولا يخالف نهجه، وهذا شأن النفس مع العقل، ولكن أعلى من هذا؛ لأن الفيض الأول والجود الأول لا واسطة له ولا شوب ولا عارض عليه، ولا كره فيه ولا اختلاف،ولا تزاحم ولا اختلاط، ولا تدافع ولا اعتراض، بل على نوع

(١) المقابسة الرابعة والعشرون ، ص ٤٤.

الخلوص وما يزيد على ما يقع في النفوس،ثم الترتيل والتدريج والتوشيح يفيض ذلك كله في الطبيعة بصباباتها وسفافاتها، وبقوافيها ومعانيها وتظهر عند ذلك الأشكال المختلفة في الأشخاص، وتبدو قواه بوسائط المسانح والإحساس.

فأما إذا وفى حقها فيما يقبل منها ما دونها، وينقاد لها ويأتمر لأمرها، ويجري على رسمها، ويظهر تشكلها في الأجزاء المتشابهة المختلفة العناصر، المختلطة والمتميزة، والمواد المستعدة والأبية، والأشتات المتلائمة والمتباينة؛ فإنها في حد الفاعلة التي تطبع وتنقش، وتصلح وتجمع، وتؤلف وتنقض، وتحظر وتبيح، وتندر وتستخرج . وهذه الرتبة حصلت لها من تقبلها للنفس؛ لأنها أعطتها صورتها وكانت فاعلة بها، ولأنها قبلت منها فكانت منفعلة لها، فلها المرتبتان والحدان، بنظر ونظر، ووجه ووجه[1].

ويستمر قائلاً عن الطبيعة: وإذا وقف على هاتين الحالتين، **الأولى:** بموجب اللسان العربي، **والثانية:** بقضية الاعتبار النظري، لم يبق في الطبيعة ما يفتقر إلى إيضاحه والإبانة عنه؛ لأن التصفح قد أتى على كل ما كان في القوة من هذين الوجهين.

فأما حدها الذي هو لها بالتحقيق وهو ما قال عنه أرسطو طاليس: إنه مبدأ الحركة والسكون، وإيضاح هذا بين في الكتب الموضوعة فيه وفي أشكاله؛ لأنها متواخية في بابها، أعني أنها في حديث النحو، واللغة، والمنطق، والنظر، وبهذا تبين لك أن البحث عن المنطق قد يرمى بك إلى جانب النحو، والبحث عن النحو يرمي بك إلى جانب المنطق، ولولا أن الكمال غير مستطاع لكان يجب أن يكون المنطقي نحويًّا، والنحوي منطقيًّا، خاصة، والنحو، واللغة العربية، والمنطق مترجم بها ومفهوم عنها، والخلل على قدر ذلك قد دخل فيها بنقل بعد نقل، وشرح بعد شرح.

---

(١) المقابسة الرابعة والعشرون ، ص ٤٧.

ويستمر قائلاً عن مصطلح الطبيعة: الطبيعة اسم مشترك يدل على معانٍ:

أحدها: ذات كل شيء عرضًا كان، أو جوهرًا، أو بسيطًا، أو مركبًا، كما يقال: طبيعة الإنسان، وطبيعة الفلك، وطبيعة البياض، والحرارة معنى ذاته، ويقال أيضًا على المركب منها، ويقال على المزاج الأول اللاحق لكل مركب من الاستقصاءات، ويقال على المزاج العام بتنوع الإنسان الذي هو موضوع للنظر فيه، وقد يستعمله الطبيب على المزاج[1].

مصطلح الموجود بالحس والموجود بالعقل والحكمة

يعرض التوحيدي عن مصطلح الموجود بالحس والموجود بالعقل والحكمة

قال التوحيدي: الموجود على ضربين موجود بالحس، وموجود بالعقل، ولكل واحد من هذين الموجودين وجود بحسب ما هو به موجود، إما حسي، وإما عقلي، فعلى هذا النفس لها عدم في أحد الموجودين، وهو الحسي ولها وجود في القسم الآخر، وهو العقلي.

وقد كان الدليل على هذه الحال حاضرًا في هذا العالم؛ وذلك أنها كانت تنقله وتستنبطه وتعقل،وتستبطئ،وتنظم المقدمات، وتدل على ينابيع المعلومات، وتعلو إلى غاية الغايات،وليس للحس معها شركة، ولا له عندها معونة ومادة، فكيف لا تكون النفس التي هي عنوان كتابتها، وصريح كنايتها، وفاضل عنايتها، بعد مفارقة القشور والحواجز، والحيطان والحواجب، والغواشي والملابس، عن الحس أغنى، وبجوهرها أعلى، وبخاصتها أسنى؟ وهذه الأشياء عنها أبعد، وعن شرفها أهبط وهل هذه الشهادة إلا عادلة، وهذه البينة إلا مقبولة، وهذا الحكم إلا مرضٍ.

ثم يعرض للحكمة قائلاً: ولطائف الحكمة لا يصل إليها الحس الجافي، والغليظ الفدم، والجلف العبام، والهلباجة العلفوف، وإنما هي تعرض لمن صح

---

(١) المقابسة الرابعة والعشرون ، ص ٥٠ .

ذهنه، واتسع فكره، ودق بحثه، ورق تصفحه، واستقامت عادته، واستنار عقله، وعلت همته، وخمد شره، وغلب خيره، وأصل رأيه، وجاد تميزه، وعذب بيانه، وقرب إتقانه وهذا عزيز جدًّا الآن(١).

مصطلحا المتكلمين والفلاسفة

يعرض التوحيدي للفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة

قال التوحيدي: يظهر لكل ذي تمييز وعقل وفهم، طريقة **المتكلمين** التي بنت أساسها على مكايل اللفظ باللفظ، وموازنة الشيء، إما بشهادة من العقل مدخولة، وإما بغير شهادة منه ألبتة والاعتماد على الجدل، وعلى ما يسبق إلى الحس أو يحكم به العيان، أو على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخليل مع الإلف والعادة والمنشأ وسائر الأعراض التي يطول إحصاؤها ويشق الإتيان عليها، وكل ذلك يتعلق بالمغالطة، والتدافع، وإسكات الخصم بما اتفق، وإتمام القول الذي لا محصول فيه ولا مرجوع له؛ مع بوادر لا تليق بالعلم، ومع سوء أدب كثير؛ نعم ومع قلة تأله، وسوء ديانة، وفساد دخلة، ورفض الورع بجملته فهناك من يقول: إني لأعجب كثيرًا من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس: نحن المتكلمون، ونحن أرباب الكلام، والكلام لنا بنا كثر وانتشر وصح، وظهر كأن سائر الناس لا يتكلمون أو ليسوا أهل الكلام؟ لعلهم عند المتكلمين خرس، أو سكوت، إما يتكلم يا قوم الفقيه، والنحوي، والطبيب، والمهندس، والمنطقي، والمنجم، والطبيعي، والإلهي، والحديثي، والصوفي(٢).

والفلسفة محدودة بحدود ستة، كلها تدل على أنها بحث عن جميع ما في العالم مما ظهر للعين، وبطن للعقل، ومركب بينهما، ومائل إلى حد طرفيهما،

---

(١) المقابسة الرابعة والثلاثون ، ص ٣٤ – ٣٩.

(١) المقابسة الثامنة والأربعون ، ص ٦٣.

(٢) المقابسة الثامنة والأربعون ، ص ٦٤.

على ما هو عليه واستفادة اعتبار الحق من جملته وتفصيله، ومسموعة ومرئيه، وموجودة ومعدومة، من غير هوًى يمال به على العقل، ولا إلف يفتقر معه إلى جناية التقليد مع إحكام العقل الاختياري، وترتيب العقل الطبيعي، وتحصيل ما ند وانقلب من غير أن يكون أوائل ذلك موجودة حسًّا وعيانًا، وكانت محققة عقلاً وبيانًا، ومع أخلاق إلهية، واختيارات علوية،وسياسات عقلية ومع أشياء كثير ذكرها وتعدادها، ولا يبلغ أقصى ما لها من حقها في شرفها.

ويستمر التوحيدي عن النحو واللغة والشعر قائلاً: إن النحو، والشعر، واللغة ليس بعلوم، ودليل ذلك أنك لو لقيت في البادية شيخًا بدويًّا قحًّا محرمًا، لم ير حضريًّا، ولا جاور أعجميًّا، ولم يفارق رعيه الإبل، وانبثاث المناهل وهو مع قبح هيئته التي لا يشق غباره فيها أحد منا؛ وإن كلف فقلت له: هل عندك علم؟ لقال: لا هذا، وهو يسير المثل، ويقرض الشعر، ويسجع السجع البديع، ويأتي بما إذا سمعه واحد من الحاضرة وعاه، واتخذه أدبًا ورواه، وجعله حجة.

إن هذه الآداب، والعلوم هي قشور الحكمة؛ لأن القياس المقصود في هذه المواضع، والدليل المدعى في هذه الأبواب معها ظل يسير من البرهان المنطقي والرمز الإلهي والإقناع الفلسفي، وقد بين هذا الباب أرسطو طاليس في الكتاب الخامس المسمى الجدل فهو كل ما في الإمكان من التعليق به، والاحتجاج منه، مع التمويه والمغالطة، بل كثير من المتكلمين لا يصلون إلى غايات ما كشفه، ورسمه، وحذر منه، وأبان عنه، وإن أنضوا مطيهم، وأبلوا جهدهم، سوى ما أتى عليه قبل هذا الكتاب، وبعده مما هو شفاء الصدور وقرة الأعين وبصيرة الألباب [1].

* *

(١) المقابسة الثامنة و والأربعون، ص ٦٥.

الفصل الرابع

في مصطلح الأرزاق ومصطلحات النثر والنظم والفعل والعمل

عرض التوحيدي لمصطلح الحظوظ والأرزاق

قال التوحيدي: قد جرى كلام في **الحظوظ والأرزاق** لعل الذي عنى لي في أن العالم والأدبة في الحكمة، والتبين والاستنباط هو الذي إليه هذا الأمر دون غيره من الأمور، فلما تولاني بما هو إليه بلغ بي، فأما ماعدا هذا من **الحظ والرزق** والكفاية فلعله إلى غيره فلذلك ما تركت مهملاً في شيء وتوليت ملقنًا في آخر، ولو عني في صاحب المال لبلغت غاية الكمال، ولو كنت أغني عن ملاحاة الرجال، وعن إعادة القيل والقال.

فقال: ليس كذلك، بل المعنى بهما واحد، وإنما تختلف هذه الحكمة ويشكل القضاء عليه في عالم الحس وعرصة الزخرف وأرجاء الماء والطين، والدليل على ذلك أن الحائك لا يزرع القطن، والخياط لا ينسج الثوب، والخباز لا يذبح الشاة، والعطار لا يدبغ الجلد، والزفان لا يضرب بالعود، ولو أمكن لفعل كل واحد جميع ذلك، وكان الإنسان يكمل بوفائه بكل شيء وإتمامه لكل شيء، وبالواجب خالف حكم الحس حكم العقل في المعقول كل مختلف متفقًا، وكل كثير واحدًا، وكل بعيد قريبًا؛ وكل متعذر سهلاً، وكل عصي سمحًا، وكل مظنون متيقنًا؛ وذلك لأن الوحدة العقلية في الكثرة الحسية مدمجة، ولو استوى الطرفان لسقط البحث وزال المراء، ولكان لا يشتاق الغريب إلى وطنه، ولا يحن إلى معدنه على أنه وإن كان قد شرفك بما منحك من الحكمة، فقد نظر لك فيما قلل حظك منه، وكفاك مؤنة سياسته ومؤنة الأسف عليه، وخلصك فصرت أربح الساعين وأغبط الموجدودين بما تعلمه أنك مفضل فيه على كثير من بني جنسك ولداتك الناشئين معك، والضاربين بسهمك، فلا تكثر الأسى على شيء هو الظل الزائل، والحلم الباطل،

وعليك في حياتك بما يكملك في الجملة، وبحملك من الأدب، ويفضلك من البيان وينبل من الخلق، ودع ما سوى ذلك فإنه جلل[١] .

مصطلحا النثر والنظم وأيهما أشد أثرًا في النفس

يعرض التوحيدي لمصطلحي النثر والنظم

قال التوحيدي: قد جرى كلام في النظم والنثر فالنظم أدل على الطبيعة؛ لأن النظم من حيز التركيب.

والنثر أدل على العقل؛ لأن النثر من حيز البساطة، وإنما تقبلنا المنظوم بأكثر مما تقلبنا المنثور؛ لأنا للطبيعة أكثر منا بالعقل، والوزن معشوق للطبيعة والحس؛ ولذلك يفتقر له عندما يعرض استكراه في اللفظ.

والعقل يطلب المعنى، فلذلك لا حظ للفظ عنده، وإن كان متشوقًا معشوقًا، والدليل على أن المعنى مطلوب النفس دون اللفظ الموشح بالوزن المحمول على الضرورة؛ أن المعنى متى صور بالسانح والخاطر، وتوفي الحكم لم يبل بما يقويه من اللفظ الذي هو كاللباس، والمعرض، والإناء، والظرف لكن العقل مع هذا يتخير لفظًا بعد لفظ، ويعشق صورة دون صورة، ويأنس بوزن دون وزن؛ ولهذا شقق الكلام بين ضروب النثر وأصناف النظم وليس هذا للطبيعة، بل الذي يستند إليها ما كان حلوًا في السمع، خفيفًا على القلب، بينه وبين الحق صلة، وبين الصواب وبينه آصرة، وحكمها مخلوط بإملاء النفس، كما أن قبول النفس راجع إلى تصويب العقل[٢].

ويعرض قائلاً: ومع هذا ففي النثر ظل النظم، ولولا ذلك ما خف ولا حلا ولا طاب ولا تحلا، وفي النظم ظل من النثر، ولولا ذلك ما تميزت أشكاله، ولا عذبت موارده ومصادره، ولا بحوره وطرائقه، ولا ائتلفت وصائله وعلائقه[٣].

---

(١) المقابسة الخامسة والسبعون، ص ٧٤ .
(٢) المقابسة الستون، ص ٧٦.
(٣) المقابسة الستون، ص ٧٧.

مصطلحا الفعل والعمل

يعرض التوحيدي لمصطلحي الفعل والعمل

قال التوحيدي: لفعل يقال على ما ينقضي، والعمل يقال على الآثار التي تثبت في الذوات بعد انقضاء الحركة، والفعل أيضًا يعم كل معنى صادر عن ذات، وحده أنه كيفية صادرة عن ذات، والانفعال كيفية واردة على ذات، فالفعل يقال على التحقيق على هذا المعنى، وهو الذي يقال إنه مقولة من المقولات العشر ويقال على العموم، أي على أي معنى صدر عن ذات فانظر هذا الفعل:

في أن النفس ليست قائمة بذاتها

لأنا لا نجدها إلا في الجسم المركب

ويعرض التوحيدي كيف لمن يقول هذا الكلام "النفس ليست قائمة بذاتها لأنا لا نجد النفس إلا في الجسم المركب "، **قائلاً** : هذا كلام من لا إلف له في هذا الفن، وقد يعرف الشيء من ناحية اعتياصه، ودقته، وقد يعرف من ناحية بلادة الناظر فيه، فإذا قلنا النفس قائمة بذاتها، فإنا نريد بهذا أنه لا علاقة لها مع الجسم ولا صلة، ولا وصل، ولا انفصال، ولا تحريك ولا تصريف، بل إن قلنا: إن النفس في الجسم فالمراد به أن قواها هي السابحة فيه أو بادية عليه، وإن قلنا: إن النفس قائمة من دون الجسم بذاتها ؛ فالمراد بذلك أيضًا أنها غير ملابسة له كملابسة الدهن الماء؛ ومدار الخير على النفس والبدن،على تصفية المعقول منه، لا على تسلط الحس عليه، ونقل التمثيل والتشبيه إليه، ألا تعلم أن الشيء على فنون؛ كالسياسة في السائس، وكالسائس في السياسة، وكالماء في الحب، وكالحب في البيت، وكالبيت في الفضاء، فقد يلحظ الجوهر على خلاف ما يلحظ في الجوهر، ويلحظ البسيط في المركب على شكل غير شكل المركب في البسيط ثم بين الذي

قسطه من البسيط على قدر آخر فرق بالضعف والقوة، وهكذا الحال في المركب والتركيب[1].

مصطلحا البلاغة والخطابة

يعرض التوحيدي لمصطلح البلاغة والخطابة

وهل هناك بلاغة أحسن من بلاغة العرب

قال التوحيدي: ما هي البلاغة ؟ أحببت أن أعرف قولاً على نهج هذه المطابقة؛ لأن لهم كتاب الخطابة في عرض الكتاب الفيلسوف، وقد بحثوا عن مراتب اللفظ واللفظ وطبائع الكلمة والكلمة، موصلة ومفصلة، وخواتيم، فعرفت أنها الصدق في المعاني مع ائتلاف الأسماء والأفعال والحروف، وإصابة اللغة وتحري الملاحة المشاكلة برفض الاستكراه ومجانبة التعسف؛ فقد يكذب البليغ، ولا يكون بكذبه خارجًا عن بلاغته، فذلك الكذب قد ألبس لباس الصدق، وأعير عليه حلة الحق، فالصدق حاكم، وإنما رجع معناه إلى الكذب الذي هو مخلف لصورة العقل الناظم للحقائق، المهذب للأعراض، المقرب للبعيد، المخضر للقريب[2].

واستمر التوحيدي في مضمار البلاغة باحثًا عن هل هناك بلاغة أحسن من بلاغة العرب؟ فظهر له أن هذا لا يظهر لنا إلا بأن نتكلم بجميع اللغات على مهارة وحذق، ثم نضع القسطاس على واحدة واحدة منها حتى نأتي على آخرها وأقصاها، ثم نحكم حكمًا بريئًا من الهوى والتقليد والعصبية والمين، وهذا ما لا يطمع فيه إلا ذو عاهة؛ ولكن قد سمعنا لغات كثيرة من أهلها، أعني من أفاضلهم وبلغائهم، فعلى ما ظهر لنا وخيل إلينا لم نجد لغة كالعربية؛ وذلك لأنها أوسع مناهج، وألطف مخارج، وأعلى مدارج، وحروفها أتم، وأسماؤها أعظم، ومعانيها أوغل، ومعاريضها أشمل، ولها هذا النحو الذي حصته منها حصة المنطق من

---

(١) المقابسة الخامسة والسبعون، ص ٩٩.

(٢) المقابسة الثامنة والثمانون، ص ١٠٧.

العقل، وهذه خصلة ما حازتها لغة على ما قرع آذاننا وصحب أذهاننا من كلام أجناس الناس، وعلى ما ترجم لنا أيضًا من ذلك؛ ولولا أن النقص من سوس هذا العالم وتوسه لكان علم المنطق بهيئة الطبيعة بالعربية، وكانت بسوق العربية إلى طبائع اليونانية، فكانت المعاني طباقًا للألفاظ والألفاظ طباقًا للمعاني، وحينئذ كان الكمال ينحط إليه عن كثب، والجمال بصادقة بلا رغب ولا رهب(١).

ومما يوضح هذا المشكل، ويبين هذا المجمل، صورة العالم، فكل وقت وساعة على حال لم يكن عليها قبل ذلك بما يفضي عليه، ويسري إليه من الحق الأول والوسائط الأولى بالجود الأعظم والأشمل، وإذا كان للعالم ولك ما فيه صورة محدودة وشكل فاضل يصير في كل وقت ولحظة إلى هيئة لم تكن عليها من قبل؛ فهل ذلك إلا لأن العالم متوجه نحو الكمال والجمال ينالهما حالاً فحال، ثم يكون له بجود الحق الأول مبتدأ به يتحدد ويسوقه وتمتد عليه نقلته من غير انفعال بتوسط ولا نحو أمر يعرض، وهذا المبدأ مفروض، وإلا فالحال متصلة اتصال الواحد بالواحد من حيث يلحظ ما هو واحد، واتصال الوحدة بالوحدة من حيث يلحظ ما له وحدة، فالعالم إنما هون من ناحية قوله وانفعاله وما هو بسبيله، وإلا فالجود الأول هو الجود الثاني، والثاني هو الأول، وإلى ما لا غاية معلومة ولا نهاية موهومة، إلا أن هذا لائق بالإله الذي له ينبغي وبه يليق، فأما العالم فتجدده وحسنه وكماله وتمامه فمضاف إليه وملحوظ فيه(٢).

مصطلحا المبنى والمعنى

يعرض التوحيدي مصطلحي المبنى والمعنى .

قال التوحيدي: إذا كان قوام الأدب هو اللفظ والمعنى، فإن عماد النثر الفني لدى أبي حيان هو الحرص على التناسب بين هذين العنصرين في سبيكة معجبة؛

---

(١) المقابسة الثامنة والثامنون ، ص ١٠٩.

(٢) المقابسة الثامنة والثمانون، ص ١١٠.

ففي اعتقاده أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي[١]؛ وهو يتوخى التوازن بينهما ويحذر من طغيان أحدهما على الآخر؛ فيقول: لا تعشق اللفظ دون المعنى، ولا تهو المعنى دون اللفظ[٢].

وبوسعنا مع ذلك أن نلمح في أسلوب أبي حيان إيثارًا لجانب المعنى برغم توخيه حسن الأداء، وذلك على الرغم مما آنسناه لديه من حرص على عدم الإخلال بتوازنهما.

ويظهر لنا ذلك في قوله: إياك أن تقف مع اللفظ القصير فتسحر به عن المعنى العريض، فإن اللفظ للعامة والمعنى للخاصة[٣]، ولعلّ مرد ذلك هو أن البيئة التي عاش أبو حيان في ربوعها بيئة عقلية تغلب عليها تيارات الفكر والعقيدة ويسودها طابع البحث والجدال. كما أن أبا حيان نفسه عزف – تبعًا لميوله العقلية – عن أوساط اللغويين والنحاة وآثر صحبة المناطقة والمتكلمين ورفقة الفلاسفة والمتصوفين.

كل هذا كان جديرًا بأن يصبغ كتابة أبي حيان بصبغة عقلية واضحة، ويسمها بسمات ذهنية بارزة، وبأن يجعل من هذا الكاتب طرازًا خاصًّا ومتميزًا بين معاصريه، حين اجتمع فيه الفكر والأداء وتعانق لديه الفلسفة والأدب. وقد كان ياقوت فطنًا حين انتبه إلى هذه الظاهرة لدى أبي حيان، ونعته بأنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة[٤].

ولو أمعنا النظر في أسلوب التوحيدي لوجدنا أنه يتسم بخاصية فريدة تكشف عن شخصية صاحبها الأديب الفيلسوف. ونحن نعرف أن الفنان يعبِّر عن

---

(١) الإمتاع والمؤانسة ١/١٠ ، ١١٥.

(٢) الإشارات الإلهية، ص ٣٦٥.

(٣) معجم الأدباء، ياقوت٥/ ١٥.

(٤) السابق، الصفحة نفسها.

المعاني بالصور المحسوسة، في حين أن الفيلسوف يعبِّر عنها بالتصورات الذهنية، وهذا هو الفارق مثلاً بين أسلوب أديب كالجاحظ وأسلوب فيلسوف كالفارابي، وأما التوحيدي فهو أديب فيلسوف يعلم أن في كل محسوس ظلاً من العقول، وأن الحسيات معابر إلى العقليات. فليس بدعًا أن نراه يمزج الحسن بالعقل، والأدب بالفلسفة(١). وما من شك في أن أسلوب فلاسفة الإسلام – على نحو ما عرفه معاصرو أبي حيان – كان أسلوبًا جافًّا حافلاً بالمصطلحات والألفاظ المترجمة؛ ولذلك أخذ بعض المفكرين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والفلسفة اليونانية، يحاولون تطويع المعاني – المستمدة من علوم الأوائل – للأسلوب العربي الجزل والعبارة العربية الرصينة.

مصطلحا الحركة والسكون

يعرض التوحيدي لمصطلحي الحركة والسكون وأيهما أقدم

قال التوحيدي : أما عند الحس فالحركة أقدم، وأما عند العقل فالسكون أقدم، فالسكون عدم الحركة، وكل حس فقوامه بالحركة، وكل عقل فصورته بالسكون، ونظامه بالهدوء، وخاصة بالطمأنينة ، وأثره بالقرار، وقوته بالنفس، وكأن من فيض العلة الأولى وجوده؛ لأنه هذا النعت لكل ما دونه ، فالاستعارة له بالواجب والحقيقة، والسكون عند العقل عدم الحس، والحركة عند الحس تأثير العقل، فسكون العقل في نوع الحركة، وحركة الحس في نوع السكون؛ لأن حركة الحس إلى الاضمحلال والنكول، وسكون العقل إلى الكمال، فالحركة التي نعتقد لها ضدًّا؛ أي السكون، هي الحركة التي للقفار وبلاد الحس، فأما الحركة لنوع السكون فلا ضد لها بوجه؛ لأن العقل كل بمعنى واحد، وواحد بمعنى كل(٢).

---

(١) إبراهيم : زكريا، أبو حيان التوحيدي ، ص١٤٠.

(٢) المقابسة الثالثة والثلاثون ، ص ٤٤.

ومن ثم طرأ السؤال الآتي هل العالم ساكن أم متحرك؟؟

فيطرح هنا التوحيدي بثقافته العربية المتنوعة الإجابة الآتية: لو كان متحركًا الحركة المعروفة لقلق وأرجح ومال وتهافت، ولو كان ساكنًا لبقي ذلك على حال ولكنه متحركة حركة استدارة، فلذلك ما يظن به السكون، وساكن لسكون قابل للفيض، فلذلك ما يظن به الحركة، فالتشوق حركة، ولكن عقلية، والدوام على التشوق سكون ما، ولكن عقلي، فكل ما قد فاض من العلة الأولى ويقبله المعلول الثاني، وهو موجود على مراتبه المتباينة ودرجاته المختلفة بين الطرف الأدنى إلى الطرف الأقصى[1].

* *

(١) المقابسة الثالثة والثلاثون ، ص ٤٤ .

الخاتمـة

أهم النتائج التي توصلت إليها في النقاط الآتية:

- التوحيدي موسوعة علمية تمثل أرقى ما وصلت إليه ثقافة الأديب في عصره.
- تميز التوحيدي بعدة مصطلحات علمية تكشف لنا طبيعة كتاب المقابسات فهو من أخطر كتبه؛ إذ حرر فيه رؤى ومعارف علماء عصره بسعة لم يدانه فيها كِتابٌ آخر، وشكلت مقابسات أولئك المناطِقة والفلاسفة سجلاً حافلاً لنصيب وافر من ثقافة بغداد.
- صاغ التوحيدي المقابسات بأسلوب بلاغي وأدبي قرّب المسافة الفاصلة بين المشتغلين بالفلسفة من ناحية والأدباء والمثقفين من ناحية أخرى.
- لفتت السمة البلاغية والطابع الأدبي للمقابسات، انتباه المتخصصين بالفلسفة، ومنهم مايرهوف.
- أن المقابسات لم تكن أبحاثًا منظمة في قضايا الفلسفة ؛ فالارتجال كان من طبيعة ما يستمع إليه التوحيدي عندما يتقابس المتقابسون ، أو ما يُملى عليه من أحدهما، إضافة إلى أن القضية الفلسفية الواحدة يأتي ذكرها في مقابستين أو أكثر؛ لأن إثارتها كانت في أوقات متفرقة، ومن علماء مختلفين.
- لا ينبغي أن يؤخذ على المقابسات تناقض طروحاتها ، فهي في النهاية تمثل رؤى محتملة الاختلاف بين متقابستين مختلفتين في الرؤى، والمعتقدات، وطبيعة ما يحفل به كل واحد من هؤلاء من علم.
- ليس من العسير الوقوف على مباحث المقابسات على نحو منظم لو قُرئت قراءة متأنية وفاحصة، وإرجاع ما قيل وحرره التوحيدي إلى أصولها الفلسفية، وهي في الغالب الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كما وُصِفت.

والمقابسات يمكن حصر وتصنيف محتوياتها إلى :

١- أطروحات ومجادلات فلسفية هي في الغالب منظمة ومرتبة ، والتعليل والحجة فيها ظاهرة، دون زيادة مدخولة عليه. وهذه قابلة للتصنيف من وجهة أخرى إلى مقابسات ذات موضوع أو قضية واحدة ، ومقابسات ذات أكثر من موضوع وقضية.

٢- أطروحات ومجادلات فلسفية منظمة ومرتبة ، مع الاستعانة بالمثل والحكاية والشعر والمقالة ، قيدت لأغراض متكاثفة وعلى سبيل الإيضاح وإفهام مفهوم ما.

٣- الصورة العامة التي صورنا بها متن المقابسات تنطوي على سرد منتظم لقضايا فلسفية هي في الغالب مرتجلة أو منقولة عن الترجمة ، أو قضايا فلسفية عدة ضمتها المقابسة الواحدة ، مع إيراد ما حسبه ملائمًا من شعر ومقالة وحكاية وأمثال ، وأقوال تجري مجرى الحكم.

٤- هي لا تنطوي على أي معنى غير إيجابي، بل نرى فيه انعكاسًا للقدرة الحاضرة في التعبير عن الحقائق الفلسفية ، وتولى الإجابة عن المسائل وتعليل القضايا ، من قبل المتقابسين في التوِّ واللحظة.

٥- إن التوحيدي نفسه لم يعرف له تخصصًا متفردًا في الفلسفة أو المنطق ، كما عُرف في غيرها ، إلا إنه كان واعيًا لهما؛ لهذا كان تدخله فيما يقال ويطلع، تدخلاً فيه الاختيار والإيضاح في قالب أدبي بليغ، وما الزيادات على النص الفلسفي منه سوى استطرادات تنم عن شغف مزدوج عنده بهذا الصنف من المعرفة وملكته البلاغية.

٦- إذا نظرنا إلى أجناس ما كتبه وحرره أبو حيان التوحيدي، فنجد فيها كل العون في هذا التمييز البدئي، فالشعر والحكاية والمقالة والمثل وغيرها مما يحسب

على الأجناس الأدبية، هي مميزة عن الفلسفة قطعًا، وتثير المقالة تداخلاً تارة، وتفردًا تارة أخرى؛ فمنها ما كانت فلسفية، بدلالة ما عليها من تنظيم للفكرة أو القضية، وتعليلات لمسائلها، وإحاطة لحواشيها، ومنها ما كانت أدبية محض ليست من سَرارة الفلسفة ، ومنها ما كانت بين هذا وذاك.

* *

فهرس المراجع العربية

- **إبراهيم** : زكريا، أبو حيان التوحيدي.
- **ابن قيم الجوزية:** روضة المحبين دار الكتب العلمية – بيروت.
- **العربي** : عبدالقادر ، بلاغة الخطاب وإبلاغية التأويل في محاورات أبي حيان التوحيدي –جامعة المسيلة – الجزائر .
- **ضيف:** شوقي، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٤م.
- **الحموي:** ياقوت، معجم الأدباء تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط١،١٩٩٣م.
- **السبكي** : طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود محمد الطناحي، مكتبة البابي الحلبي، ط١.
- **أبو حيان التوحيدي:** الإشارات الإلهية ، تحقيق وداد قاضي ، دار القاضي للثقافة بيروت ، لبنان ط ، ١٩٨٢ .
- **آمال : شيخ** : البنية الحجاجية في كتاب المقابسات ، لأبي حيان التوحيدي (رسالة ماجستير للطالبة – شيخ امال جامعة المسيلة /الجزائر ٢٠٠٩-٢٠١٠م
- **الأعسم** : لأمير ،أبو حيان التوحيدي في كتاب المقابسات.
- **أبو حيان التوحيدي ، ت:** محمد توفيق حسين، دار الآداب، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٩.
- **حمود** : خضر موسى محمد ، الجواحظ في الأدب العربي (حياتهم، بيئتهم ، نتاجهم) .
- **ضيف** : شوقي ، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات .
- **الدكتور ماكس مايرهوف:** من الإسكندرية إلى بغداد ضمن كتاب " التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، عبد الرحمن بدوي، الطبعة الرابعة، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت لبنان.

- **أبو حيان التوحيدي:** المقابسات تحقيق حسن السندوبي الطبعة الثانية ١٩٩٢، الناشر دار الكتاب الإسلامي القاهرة .
- **محمود أمين العالم:** تساؤلات حول الهوامل والشوامل، مجلة فصول المصرية، مجلد ١٤ ، العدد٣ ، ١٩٩٦.
- **السامرائي:** محمد رجب، أبو حيان التوحيدي إنسانًا وأديبًا، ط١، الأردن ، الأوائل للنشر والخدمات الطباعية، ٢٠٠٢م،
- **السامرائي:** أبو حيان التوحيدي إنسانًا وأديبًا.
- **الإمتاع والمؤانسة.**
- **التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية** ، في مقدمة المحقق محمد توفيق حسين.
- **دائرة المعارف الإسلامية في مقدمة المحقق .**
- **كاظم:** عبد الرحمن، مقابسة المقابسات – التعريفات والمباحث والمسائل الفلسفية لمقابسات أبي حيان التوحيدي.

REFERENCES

• Ibrahim: Zakaria, Abu Hayyan al-Tawhidi

• Ibn Qayyim Al-Jouzia: Kindergarten of the lovers, Dar Al-Kotob Al-Alami - Beirut.

• Al-Arabi: Abdel-Qader, the rhetoric of the discourse and the purpose of interpretation in the conversations of Abu Hayyan Al-Tawhidi - University of Messila - Algeria

• Deif: Shawky, History of Arab Literature, Dar Al Maaref, Cairo, Edition ١, C١,٢, ١٩٨٤AD

• Al-Hamwi: Yaqoot, The Literary Dictionary, U: Ihsan Abbas, Dar Al-Gharb Al-Islami, ١st ed. ١٩٩٣AD

• Al-Sabki: The Great Shafi'i Classes, under: Mahmoud Muhammad Al-Tanahi, Al-Babi Al-Halabi Library, ١st Edition, ٤th Edition, ١٩٦٤ AD

• Abu Hayyan Al-Tawhidi, The Divine Signs, Investigation by Wadad Qadi, Al-Qadi House for Culture, Beirut, Lebanon, ١٩٨٢.

• Amal: Sheikh, The Pilgrim Architecture in the Book of Al-Moqabsat, by Abu Hayyan Al-Tawhidi (Master Thesis by the student / Sheikh Amal University of Messila / Algeria ٢٠٠٩-٢٠١٠

• Al-Asam: by Amir, Abu Hayyan Al-Tawhidi in the book Al-Moqabsat.

• Abu Hayyan Al-Tawhidi, T: Muhammad Tawfiq Hussein, Dar Al-Adab, ٢nd floor, Beirut, Lebanon, ١٩٨٩.

• Hammoud: Khader Musa Muhammad, Al-Jawahiz in Arabic Literature (Their Life, Their Environment, Their Products).

• Daif: Shawky, History of Arab Literature, the Era of Countries and Emirates.

• Dr. Max Mayerhof: From Alexandria to Baghdad within the book "The Greek Heritage in Islamic Civilization. Abd al-Rahman Badawi. Fourth Edition. Publisher. Publications Agency, Kuwait. Dar Al-Qalam. Beirut Lebanon."

• Abu Hayyan Al-Tawhidi: Al-Muqabisat, edited by Hassan Al-Sandoubi, second edition ١٩٩٢, published by Dar Al-Kitaab Al-Islami, Cairo

• Mahmoud Amin Al-Alam, Questions About Al-Hamil and Al-Shamil, Fusool Al-Masrya, Vol. ١٤, Issue ٣, ١٩٩٦. .

• Al-Samarrai: Muhammad Rajab, Abu Hayyan al-Tawhidi, a man and a writer, ١st ed., Jordan, Al-Awael Publishing and Printing Services, ٢٠٠٢ AD,

• Al-Samarrai: Abu Hayyan al-Tawhidi is a person and a writer,

previous reference, ٢١٣.

• Enjoyment and sociability

• Divine signs ,.

• A Dictionary of Writers, Yaqoot

• Ibrahim: Zakaria, Abu Hayyan al-Tawhidi,

• The Greek heritage in the Islamic civilization, with the introduction of the investigator Muhammad Tawfiq Hussein

• Department of Islamic knowledge at the forefront of the investigator

• Kazem: Abd al-Rahman, Maqabasat al-Muqabasat - definitions, investigations and philosophical issues of Muqabasat Abu Hayyan al-Tawhidi

* * *